العثماني ، كان هو ايضا عضوا في الجمعية السرية · وكان هدف الجمعية في البداية اصلاح الولاية السورية على اساس اللامركزية · ولكن تنحية مدحت باشا من قبل الباب العالي ، وتدبيرعملية اغتياله في الجزيرة العربية ، قد اقنعا اسحق والجزائري والعازار والمطران بطرس البستاني وغيرهم بضرورة الثورة على السلطنة ، واستقلال العرب عن الترك·

ولنأخذ مثلا على ذلك ما ورد في مقالة « الاتحاد يمحو الاستبداد »المنشورة في «مصر » (القاهرة ، العدد ٢٠ ،تاريخ ١٨ حزيران ١٨٨٠) ، ولنر كيف ان مضمون المقالة يتمحور على مدحت باشا الذي شاء النهوض بالولاية السورية ، فقضى عليه عدو النهوض في السلطنة · وسنرى ايضا كيف يحرض اسحق السوريين على الثورة بعبارات تستنكر وتستغرب سكوتهم على الظلم والظالمين ·

يستهل الكاتب مقالته بالقول : « الطامة الكبرى ، وما ادراكم من الطامة الكبرى ؟ ان يؤتى بهم كقطاع الطريق الى سجون القتل وانتم تبصرون · اريد الذين يطلبون دينهم وديونكم ، ويدافعون عن انفسهم وعنكم ، ويقولون الحق يعرضونه لمجلس اعلن لكم استعداده لسماع ما تدعون ، فتقتلعهم الايدي الظالمة من بينكم ، وانتم شركاؤهم في المنفعة لو حصلت ، وفي ما هو حاصل من المضار· ثم لا يأتي الليل الا وقد صارت حادثتهم سمرا ، تضيعون بها الوقت ، غير مبالين بما تؤول اليه حالكم بعد ذلك من استفحال الظلم واشتداد الجور الذي تربونه بالطاعة العمياء والاستكانة والذل ، فيفترسكم بالانياب التي غذيتم بالتهاون والضعف فيخرب ما بنى اباؤكم بأيدي ابنائهم » ·

بعد الوصف يأتي التحريض : « يا قوم ان سكتم عن هذا الحق الظاهر ، فأي حق بعده تطلبون ، وان رضيتم بهذا الظلم الواضح ، فبأي ظلم بعده تغضبون ؟ لقد فتح النبهاء لنا باب الحمية فانقض الظالمون عليهم يضربونهم ويسجنون فان لم ندخل ذلك الباب افواجا متسابقين الى الكرة ، فكأنما اشترينا بأموالنا السلاسل والاغلال ، وجعلناها في اعناقنا ، ثم تقدمنا الى سدة الظالم نلتمس منه ان يأخذ بأطرافها ، فيقودنا الى حيث شاءت نفسه الدنيئة » ·

اخيرا يختم اسحق مقالته التحريضية بملامح تفاؤلية كما هي عادة الثوار القادة : « لامحل للقنوط من غيرتكم ، ولا موجب لليأس من همتكم فقد سلكتم في هذه الايام سبيلا جديدا ، فعسى ان لا تهولكم العقبات ولا تروعكم المشقة وطول الشقة ، فانه لا راحة بعد تعب ، وعفا الله عن شاعرنا حيث قال :

ترومين ادراك المعالي رخيصة

ولا بد دون الشهد من ابر النحل »
(ص ١٠٠) ·

باستثناء ذلك ، فالدراسة عكست فكر اديب اسحق الملتزم بصورة دقيقة عميقة · وهنا تجدر الاشارة الى الجانب من المبحث الذي تناولت فيه المقدمة عروبة أديب اسحق · كان الباحث ازاء كتابات أسحق في « دولة العرب » عقلانيا حتى النهاية · وهو هنا قد شذ عن الاتجاه السائد في الدراسات التراثية ، والذي يقوم بتضخيم الافكار او الاحداث ·

لقد كتب اسحق اكثر من مرة عن الجنس العربي والاتحاد العربي و « دولة العرب » · والعبارة الاخيرة هي عنوان مقالة اسحق المنشورة في « مصر » (القاهرة ، العدد ٢ ، الصادرة في ١٨٨٠/١/٢٢) · ويقول اسحق في مطلع المقالة : « شعلة سرت من الحجاز فانارت الشام ، والعراقين ، ومصر ، والمغرب ، والهند ، واتصلت باطراف الفرنجة فملأتها نورا ونارا ، فهي بنورها تستضيء ومن